

ما الذي تخطط له إيران في دير الزور؟

عُلا الرفاعي

10 تشرين الأول/أكتوبر 2019

في 30 أيلول/سبتمبر، أعادت سوريا والعراق فتح معبرهما الحدودي الرئيسي بين البوكمال والقائم، الذي كان مغلقاً رسمياً منذ خمس سنوات. وحملت الظروف المحيطة بهذا الحدث دلالات كثيرة - فقد تم تأجيل الحفل لمدة أسبوعين بسبب الضربات الجوية الأجنبية التي لم تتبن أي جهة مسؤوليتها عنها والتي طالبت أهدافاً لـ «الحرس الثوري الإسلامي» الإيراني في شرق سوريا في أعقاب [الهجوم الإيراني على منشآت نفط سعودية](#) في وقت سابق من ذلك الشهر. فما الذي كان يفعله تماماً «الحرس الثوري» الإيراني ووكلاؤه المحليون في محافظة دير الزور؟ وما هي دلالات هذا النشاط على خطط إيران الأوسع نطاقاً هناك؟

فتح الباب للوكلاء العراقيين

ترأس حفل إعادة فتح المعبر كاظم العقابي ممثلاً عن الحكومة العراقية، الأمر الذي أثار تساؤلات حول ما إذا كان القرار سيساعد في الالتفاف على العقوبات الأمريكية المفروضة على إيران. ورغم أن وسائل الإعلام الحكومية السورية غطت الحدث باعتباره فرصة لتعزيز التجارة مع العراق، إلا أن رد فعل طهران أشار إلى أن المعبر سيخدم المصالح العسكرية الإيرانية بشكل رئيسي.

ووفقاً لمسؤولين ووسائل الإعلام في إيران، تكتسي إعادة فتح المعبر "أهميةً استراتيجيّةً كبيرةً" في تقوية "التحالف الثلاثي" للجمهورية الإسلامية مع بغداد ودمشق. وكما جاء في مقال نُشر مؤخراً في وكالة "مهر للأنباء"، فإن هذا الحدث قد "يمهد" الطريق أيضاً أمام إيران لمواجهة [التواجد العسكري الأمريكي المحتمل](#) في شمال شرق سوريا من خلال السماح لـ "قوات الحشد الشعبي" وجماعات أخرى بدخول الأراضي السورية بالكامل والقضاء على الإرهاب"، في إشارة جزئياً إلى [المليشيات الشيعية ضمن "قوات الحشد الشعبي" العراقية](#) التي غالباً ما تنشط على الحدود.

تهميش قوات الأسد

وفقاً لناشطين سوريين معارضين للنظام، تسيطر إيران ووكلاؤها حالياً على سبع بلدات على الأقل على الجانب الشرقي من نهر الفرات الممتد جنوب مدينة دير الزور، من الميادين إلى البوكمال. ويشمل ذلك سلطةً عسكريةً كاملةً وإدارةً تنفيذيةً يمارسها ما يقرب من 4500 عنصر مسلح، بعضهم من «الحرس الثوري» الإيراني والبعض الآخر من مليشيات شيعية مثل «لواء الباقر»، و«كتيبة الفاطميون»، و«الحشد الشعبي»، ومختلف الجماعات التي تطلق على نفسها «حزب الله السوري».



Notes: Red arrows indicate towns under Iranian control. The area circled in red was the site of recent protests against the Assad regime and Iran. This map has been reproduced with permission from Deir al-Zour 24.

ملاحظات: تشير الأسهم الحمراء إلى المدن الخاضعة لسيطرة إيران. أما المنطقة المشار إليها بدائرة حمراء، فكانت مسرح الاحتجاجات التي اندلعت مؤخراً ضد نظام الأسد وإيران. تم إعداد هذه الخريطة بإذن من شبكة "دير الزور 24".

وكان تواجد هذه العناصر قد أضعف بشكل كبير الدور المحلي لمليشيات «قوات الدفاع الوطني» التابعة لنظام الأسد، ويُعزى ذلك جزئياً إلى انعدام ثقة «الحرس الثوري» الإيراني بقدرات هذه القوات، ولكن أيضاً بسبب خطة طهران الطويلة الأمد لتعزيز نفوذها الخاص. ووفقاً لمدير شبكة "دير الزور 24" الإخبارية، عمر أبو ليلى، "يُسمح فقط" لـ «قوات الدفاع الوطني» بممارسة السلطة على المناطق المدنية في محافظة (دير الزور) ولا يُسمح لها بالمشاركة في المعركة. وفي بعض الحالات، أفادت بعض التقارير أن «الحرس الثوري» اعتقل مقاتلين من «قوات الدفاع الوطني» بسبب صراعات داخلية على السلطة. وحتى تواجد الوحدات العسكرية الروسية قد تراجع على ما يبدو في جميع أنحاء

وفي الوقت نفسه، تقوم إيران ببناء قاعدتين عسكريتين جديدتين في المنطقة: إحداهما في الصواحي الغربية لمدينة الميادين، والأخرى أكبر حجماً في البوكمال أطلق عليها اسم "الإمام علي". ويتم بناء القاعدتين بالتعاون مع "جهاد البناء" و"منظمة الإمام الحسين"، وهما مؤسستان ترعاهما إيران ولهما فروع في مدن دير الزور، الميادين، والبوكمال. وستعزز هاتين المنشأتين هدف طهران المتمثل في السيطرة على طريق استراتيجي رئيسي: من البوكمال شمالاً إلى محطة ضخ النفط في الميادين "تي-2"، ومن ثم غرباً إلى التياس التي تضم محطة الضخ/القاعدة الجوية السورية "تي-4"؛ وأخيراً إلى سهل البقاع في لبنان، المعقل الرئيسي لـ «حزب الله». وقامت جهات أجنبية مختلفة بشن غارات جوية على أجزاء من هذا الطريق، لكن قوات «الحرس الثوري» الإيراني ووكلائها قاصت من تعرّضها لمثل هذه العمليات من خلال الاختباء داخل منازل المدنيين.

دفع رواتب المقاتلين وإسكانهم

على الرغم من أن الميليشيات الشيعية في دير الزور تضم فصائل أفغانية وباكستانية، إلا أنّ «قوات الحشد الشعبي» العراقية هي بمثابة القناة المالية الرئيسية لإيران في المحافظة، ولا سيما في البوكمال. وتختلف الرواتب وأساليب توزيعها بحسب جنسية المجند. على سبيل المثال، يتقاضى المقاتلون العراقيون في سوريا حوالي 400 دولار شهرياً عبر بطاقات "ماستر كارد" تُعطى لهم من قبل «الحشد الشعبي». أما المقاتلون من جنسيات أخرى، فيتقاضون أموالهم نقداً وشخصياً، وغالباً ما يتم سحبها من مصارف خاضعة لإدارة «قوات الحشد الشعبي» في العراق - في انتهاك محتمل لسياسة العقوبات الأمريكية.

أما بالنسبة للمجندين السوريين المحليين، فيتم دفع رواتبهم مباشرة من قبل «الحرس الثوري» بمبالغ تعتمد على المهام الفردية الموكلة لهم. فأولئك الذين يخدمون في مدنهام وقراهم يحصلون على 100 دولار شهرياً، في حين يحصل الذين يتوجهون إلى الخطوط الأمامية على 150 دولاراً بالإضافة إلى الألبات العسكرية وقسائم الوقود والأموال المخصصة لمصاريف متنوعة. ووفقاً لشخصيات محلية مناهضة للنظام، فإن هذه الممارسات المالية لـ «الحرس الثوري» المنظمة جيداً تفوق بكثير الهيكلية الأمنية "الفوضوية والمفلسة" لنظام الأسد. وعلى غرار ما حدث عندما سيطر تنظيم «الدولة الإسلامية» على المنطقة، تستقطب الحوافز المالية لـ «الحرس الثوري» الرجال السوريين العاطلين عن العمل والفقراء، وكذلك المقاتلين الأجانب.

بالإضافة إلى ذلك، يُضمن للمجندين الشيعة وعائلاتهم السكن في العقارات التي يشتريها ويديرها رجال أعمال إيرانيون. ومنذ تشرين الثاني/نوفمبر 2018، استقرت أكثر من مائة عائلة شيعية أجنبية في الأحياء الجنوبية للميادين، وعدد مماثل من العائلات الشيعية العراقية في البوكمال؛ وقد ازدادت هذه الأعداد بلا شك منذ ذلك الحين.

تمويل التلقين التربوي والديني

تتجلى [مبادرات إعادة الإعمار](#) ومشاريع الأعمال العامة التي تنفذها إيران في سوريا أكثر فأكثر. فإلى جانب تقديم مدفوعات مباشرة إلى المجندين الشيعة، يتغلغل «الحرس الثوري» الإيراني و «الحشد الشعبي» في النسيج الاجتماعي لغالبية السكان العرب السنة من خلال مجموعة متنوعة من الأنشطة الاجتماعية والاقتصادية، الأمر الذي يساعد هذه القوات على فرض مذهب الشيعة الإثني عشرية على السكان المحليين الذين يعانون من صائقة مالية.

على سبيل المثال، بمباركة نظام الأسد، يُرغم "المركز الثقافي الإيراني" في مدينة دير الزور بشكل أساسي طلاب المدارس والجامعات على المشاركة في الفعاليات التي ينظمها المركز. كما أمر «اتحاد شببية الثورة» التابع لحزب البعث الخاضع للنظام مديرية التعليم المحلية بتنظيم رحلات ميدانية لحضور الاحتفالات الدينية الشيعية ومحاضرات «الحرس الثوري» الإيراني وفعاليات كتابة قصص قصيرة ومسابقات رياضية؛ وفي المقابل، يكسب الطلاب أرصدة ومساعدات مالية إضافية.

وبالمثل، يتم الإعلان بشكل كبير عن المنح الدراسية للدراسة في الخارج والتي تستهدف الطلاب المهتمين بمتابعة الدراسات الدينية والعودة إلى سوريا كدعاة مبشرين بمذهب الإثني عشرية. وتخصص المنح الدراسية للفئات العمرية بدءاً من أطفال المدارس الابتدائية ووصولاً إلى الطلاب الذين هم في الثلاثينات من عمرهم. وقد سبق لحوالي مائة طالب من دير الزور أن سافروا إلى إيران للالتحاق بهذا البرنامج (الصغار برفقة أولياء أمورهم). بالإضافة إلى ذلك، يدير أساتذة إيرانيون ثلاث مدارس في الميادين والبوكمال ومدينة دير الزور، حيث يُدرسون اللغة الفارسية والتاريخ إلى جانب مواد أخرى؛ وتفيد بعض التقارير عن التحاق نحو مائتي طالب بهذه المدارس.

وتؤدي بعض القبائل المحلية في دير الزور دوراً رئيسياً في تطبيق هذه الأجنحة الإيرانية. ففي مناطق مثل صبيخان والميادين، أمر «الحرس الثوري» الإيراني شيوخ القبائل بدعوة السكان لحضور فعاليات تنظم في حسينية شيعية حيث يتم توزيع الجوائز والمساعدات على الأيتام والنساء وعوائل الشهداء. وتشير المصادر المحلية أيضاً إلى أن الشيخ نواف البشير من قبيلة "البقارة" يدير ميليشيا تدعمها إيران في المحميمة. وبالمثل، يُعتبر صالح محمد إسماعيل البعاج، أحد المسؤولين في قبيلة "البعاجين" في الميادين، حليف طهران الرئيسي في نشر مذهب الاثني عشرية بالتعاون مع "المركز الثقافي الإيراني" في دمشق؛ هذا بالإضافة إلى دوره كمستشار ديني لـ «لواء أبو الفضل العباس»، وهو وحدة ميليشيا موالية للأسد تتألف من مقاتلين عراقيين ولبنانيين.

وأصبحت "العصا" في نهج "العصا والجزرة" هذا واضحة أيضاً. ففي العام الماضي، على سبيل المثال، ألقبت السلطات السورية القبض على عشرين من أئمة السنة من صبيخان والميادين والبوكمال وغيرها من المدن لرفضهم الدعوة إلى الصلاة بأسلوب شيعي. وفي المقابل، تلقى الأئمة الذين لبّوا النداء زيادة في الأجور.

وتم تعزيز مركز دير الزور في تحقيق الأهداف الدينية والإستراتيجية لإيران في تموز/يوليو الماضي، عندما زار قائد «فيلق القدس» التابع لـ «الحرس الثوري الإسلامي» قاسم سليمان مدينة البوكمال شخصياً. وهناك التقى مع قادة ميليشيات من أجل تأسيس وحدة جديدة تحت اسم «لواء حراس المقامات»، التي ستكلف بالدفاع عن المقامات الشيعية التي بنيت مؤخراً في دير الزور. ومن خلال بناء مقامات شيعية جديدة في مواقع مقدسة قديمة أو على مقربة منها كان قد سبق لسلاسل سنية أن أسستها، يسعى «الحرس الثوري» إلى تشكيل شرعية دينية محلية. وسوف تتماشى هذه المهمة بشكل جيد مع العديد من المنظمات الإنسانية التي أنشأتها إيران في المحافظة، والتي تُعرّف السكان المحليين على العقائد الشيعية أثناء توزيع المساعدات عليهم.

على الولايات المتحدة تسخير خيبة الأمل المحلية

في الآونة الأخيرة، دفع هذا المزيج من الآليات الإيرانية بسكان محافظة دير الزور إلى تنظيم احتجاجات ضد نظام الأسد وانتقاد الوجود العسكري لـ «الحرس الثوري» وتأثيره الاجتماعي. وتمثل هذه المظاهرات فرصة مهمة للولايات المتحدة وحلفائها الإقليميين لقلب الاتجاهات المثيرة للقلق على الأرض، سواء عن طريق الإذلاء علناً بدعم المتظاهرين، وحمائهم من الأذى عند الإمكان، وأو مساعدتهم سرّاً. إن القيام بذلك لن يدعم مطالب السوريين المبررة فحسب، بل سيعيق أيضاً هدف إيران المتمثل بتأسيس "هلال شيعي" عبر العراق وسوريا ولبنان - وهي نتيجة قد تشكل تهديداً كبيراً للمصالح الأمريكية ومصالح الحلفاء في الشرق الأوسط. بالإضافة إلى ذلك، على الحلفاء تكثيف إجراءاتهم الأكثر قسرية عند الضرورة، بدءاً بشنّ ضربات جوية إضافية ضد عناصر «الحرس الثوري» الإيراني والوكلاء الإيرانيين المحددين [كعملاء للجمهورية الإسلامية]

داخل سوريا، وصولاً إلى منع أو تثبيط مؤسسات «قوات الحشد الشعبي» العراقية من تحويل الأموال إلى المقاتلين الذين ينفذون عمليات عبر الحدود.

عُلا الرفاعي هي زميلة في "برنامج غيدولد للسياسة العربية" في معهد واشنطن.